جامعة قطر

مكتبة البنين
قسم الدوريات

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

غير مسموح بإعارته من المكتبة

العدد الحادي عشر
١٤٠٩ هجرية - ١٩٨٨ ميلادية

طه حسين وقضية التغريب

د. أحمد زكريا الشلق
أستاذ مساعد بقسم التاريخ

يتناول هذا الموضوع اتجاهاً فكرياً محدداً من أفكار طه حسين . . انشغل به فكره وقلمه حينا من الدهر ، وظل مهموماً ومهتمًا به لأكثر من نصف قرن . . كما يتصل بتاريخ الفكر العربي أو باحدى قضاياه المتعددة . أكثر من اتصاله بالأدب العربي ، نقده وتاريخه ، وهو المجال الأول والمحبب لطه حسين . . ونطاق هذا الموضوع الزمني يمتد منذ بدايات هذا القرن ، وبالتحديد منذ عام ١٩١٠ حين هجر طه حسين الأزهر والتحق بالجامعة الأهلية الوليدة ، وحين شرع يجرب قلمه في الكتابة في الصحف ويتصل بالحياة العامة من قريب . . ويتوقف بنا الموضوع عند أوائل عام ١٩٧٣ حين أدلى طه حسين بآخر حديث له ثم رحل عن عالمنا في أكتوبر من نفس العام .

وسوف نتبع منهجاً تاريخياً، يضع القضية في إطارها من تاريخ الفكر عامة ، ويرصد تطورها في فكر طه حسين خاصة . وإن كان هذا لا يعفينا من التأكيد على حقائق التاريخ المتصلة بالموضوع .

ولقد أعلم منذ البداية أن هذا النوع من الموضوعات يثير الجدل والاختلاف في الرأي أكثر مما يُفضي إلى الاتفاق . . وربما كان هذا أحد أسباب اختيار الموضوع لا من أسباب اجتنابه . . ذلك أن قضية الهوية الثقافية ما تزال تطرح بين الحين والآخر في الفكر والثقافة العربيين ، وكأنها لم تكن أزمة جيل النهضة الأول حسمها وانقضت . . وإنما

لازلنا ننقسم إلى دعاة للاصالة ودعاة للتجديد أو المعاصرة ، ومازال فينا دعاة التراث وأنصار الحداثة . . ومازلنا نختلف حول الثابت والمتحول ، حول الموروث والمجتلب .

ونقصد بقضية التغريب هنا، تلك المسألة التي واجهت الفكر العربي الحديث منذ بدأ يصطدم بحضارة الغرب ذلك الصدام الذي جعله يتخذ موقفاً من هذه الحضارة، سواء بالتحدي أو الاستجابة . . وربما كان المعنى الأدق هنا هو : تبني النموذج الغربي في تمدين وتحديث المجتمع العربي الاسلامي . . وقد يستخدم بعض الكتاب إصطلاح «أوْرَبة» اشتقاقاً من كلمة «أوربا» والمعنى واحد على كل حال ، مادام المقصود هنا هو الغرب الاوربي . . وقد تكون الكلمة ترجمة للاصطلاح الأوربي Westernizing أو **Westernization** .

وقد نشأت مسألة التغريب وواجهت المجتمع العربي الاسلامي في العصر الحديث منذ احتك بأوربا وحضارتها ، واصطدم بها حرباً أو سلمًا . . سواء من خلال حملات الغزو الأوربي لبلادنا أو من خلال بعوثنا العلمية للغرب ، وسواء من خلال استقدامنا الخبراء والفنيين والمعلمين الأوربيين لبلادنا ، أو من خلال ترجمة التراث الأوربي في مجاله النظري والتطبيقي ، وقد اهتم بهذه المسألة معظم مفكرينا المستنيرين بدءاً بجيل الطهطاوي والتونسي والشدياق . . وحتى جيل لطفي السيد وكرد علي والدكتور هيكل وطه حسين . . كما تبلورت منذ هذه الفترة اتجاهات رئيسية إزاء مسألة التغريب ، منها ما يرفض التجربة الأوربية برمتها ويراها خطراً على التراث والهوية . . ومنها ما انبهر بتقدم الغرب وحضارته ودعا للإرتماء في أحضانه أملاً في الفكاك من دائرة التخلف والجمود . . ومنها ما يأخذ من الاتجاهين السابقين بنصيب مختلف . .

★★★

ومن المعروف أن طه حسين دخل الأزهر عام ١٩٠٢ ومكث فيه حتى عام ١٩١٠ حين هجره والتحق بالجامعة الأهلية وكانت سنوات الأزهر خصيبة ومؤثرة في حياته تأثيراً بالغاً . . وقد أغنانا عن معرفة رأيه في الأزهر في تلك الأيام بوصفه المثير له بكتابه « الأيام » حيث نلاحظ أن هذه السنوات وما لقيه فيها من عنت وبلاء ، جعلته يكفر بالأزهر وبنظامه التعليمي . . ولعل ذلك قد أحدث في نفسه أثراً سلبياً دفعه نحو الجامعة وما فيها من دراسة مدنية أحبها ، ووصل بها الى غايتها القصوى حين استكمل دراسته في فرنسا .

ولعل الأثر الإيجابي الذي أفاده طه حسين خلال سنوات الازهر يتمثل في أنه جمع خلالها ذخيرته من الأدب العربي الذي قيض له فيها بعد أن يكون أستاذه الأكبر وعميده . . كما ظهرت خلال هذه السنوات بدايات قلقه وتمرده الفكري الأمر الذي انتهى به إلى الانشقاق عن بيته الكبير(١) .

وفي نفس الفترة اختلف طه حسين إلى حلقات الامام محمد عبده وأعجب بطريقته وأسلوبه ، واتصل ببيئة المثقفين ثقافة مدنية وأوربية ، فتعرف على لطفي السيد وأعجب به ، وتردد على صحيفة « الجريدة » واستكتبه فيها لطفي السيد الذي كان من المتحمسين للغرب وحضارته . . وفي نفس البيئة قرأ طه حسين ترجمات فتحي زغلول عن الفرنسية ، وترجمات محمد السباعي عن الانجليزية ، وشغف بكتابات قاسم أمين وجورجي زيدان ويعقوب صروف وغيرهم(٢) .

كما أنشأ طه حسين يجرب قلمه في صحيفة الجريدة متناولاً موضوعات أدبية واجتماعية . . ومن الطريف أنه في هذه الفترة المبكرة كتب يهاجم الذين يستبدلون زيهم الشرقي بالزي الغربي ، واعتبر من يفعل ذلك متنازلاً عن كرامة أمته في عاداتها وآدابها . . كما هاجم في مثال آخر عام ١٩١١ مسألة زواج المسلم بالكتابية ودعا إلى تحريمه أوتضييق دائرته « لفساد الدين في نفوس الافرنج »(٣) وسنلاحظ أن طه حسين تخلى عن أفكاره هذه بعد سنوات قليلة .

وبانتقال طه حسين إلى الجامعة دخل مرحلة هامة من مراحل تكوينه العقلي والفكري ، واتصل ببيئة المستشرقين ، فدرس تاريخ الأدب على نللينو والفلسفة الإسلامية وتاريخ الترجمة على سنتلانا وتاريخ الشرق القديم على الأستاذ ميلوني بالاضافة إلى دراسة اللغات السامية على ليتمان . . وإلى جانب هؤلاء درس على أساتذة مصريين كان لهم أبعد الأثر في حياته ، فقد أتاحوا ـ على حد تعبيره ـ لشخصيته المصرية العربية أن تقوى وأن تثبت أمام هذا العلم الذي أتى به المستشرقون(٤) .

وكان طه حسين قد تقدم عام ١٩١٢ لنيل عالمية الأزهر ، وذكر أن لجنة الامتحان قد تعمدت إسقاطه . . ولكنه بعد أن فرغ من دراسته الجامعية تقدم عام ١٩١٤ برسالة لنيل درجة الدكتوراه عن ذكرى أبي العلاء المعري ، وكانت هذه أول رسالة تمنحها الجامعة المصرية ، مما أثار اهتماماً كبيراً به ، وساعده على السفر إلى فرنسا في بعثة الجامعة المصرية إليها .

وحتى عام ١٩١٤ كان طه قد قطع شوطاً في تعلم الفرنسية ، حتى أنه أراد أن يجرب قلمه فيها فاشترك في ترجمة كتاب « الواجب » لجول سيمون الذي نشر في نفس العام . . كما سافر إلى فرنسا في أواخر عام ١٩١٤ . . وما كاد يدخل غرفته في السفينة حتى خلع عمته وجبته وقفطانه ودخل في الثياب الأوربية[٥] ! .

وكانت سلطات الجامعة قد حددت تخصصه في العلوم التاريخية ، وبوصوله الى مونبلييه بدأ مرحلة جديدة أخرى من حياته استمرت حتى عودته الى مصر حاملاً درجة الدكتوراه من السوربون عام ١٩١٩ . . وفي فرنسا استكمل دراسة اللغة الفرنسية ودرس علم النفس على فيكو ، ثم درس التاريخ اليوناني على جلوتز ، والروماني على بلوك كما درس التاريخ الحديث على سينوبوس ، بالاضافة الى متابعته محاضرات الكوليج دي فرانس وخاصة دروس أستاذه كازانوفا في تفسير القرآن[٦] .

وعموماً لم ينفصل تمثل طه حسين للثقافة الفرنسية عن تمثله للوسط الفرنسي ذاته ، فأصبحت باريس عنده تختصر العالم الانساني باختلاف أزمنته وأمكنته . . كما أنه التقى فيها بفتاته التي نظمت حياته ، وأبرأته من عقدة عجزه ، وعلمته المواجهة الاجتماعية وصارت زوجاً له .

وقد اختار طه حسين موضوع دراسته للدكتوراه ، بعد أن أتم دراسة التاريخ ، عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تحت إشراف الاستاذ إميل دوركايم والمستشرق كازانوفا ، وحين توفي دوركايم خلفه بوجليه .

عين طه حسين فور عودته إلى مصر أستاذاً للتاريخ اليوناني والروماني بالجامعة وبقي في وظيفته حتى عام ١٩٢٥ عندما انتقلت إدارة الجامعة إلى الحكومة فأصبح أستاذاً للأدب العربي بكلية الآداب بها . ونلاحظ خلال هذه الفترة أن الثقافة الكلاسيكية قد استأثرت بنشاطه واهتمامه ، فصدر له عام ١٩١٩ كتاب بعنوان « آلهة اليونان » يضم ملخصاً لمحاضراته عن الظاهرة الدينية عند الإغريق كما نشر صحفاً مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان عام ١٩٢٠ وأعقب ذلك بترجمة نظام الاثينيين لأرسطوطاليس في العام التالي ، ثم ألف كتابه عن «قادة الفكر» عام ١٩٢٥ . . ولم تكن دراسة طه حسين للغات القديمة هدفا في ذاتها وإنما كانت الحضارات القديمة هي الهدف ، فكان يرى أن اليونان هم آباء الحضارة الحديثة وآباء عصر النهضة . . وأنه لن يستطيع فهم فلسفة كونت إلا إذا درس أرسطوطاليس . . وأنه لن يفهم شعر راسين وميلتون وكورني وجوته إلا إذا قرأ هوميروس وأسيخيلوس وسوفوكليس ويوربيديس[٧] وكان يؤكد دوماً فكرة أن

الحضارة العربية الإسلامية في أزهى عصورها نقلت عن اليونان ، وأن ذلك من أبرز تقاليد الفكر الإسلامي المتحضر .

وخلال فترة دراسته في فرنسا أصبح الفكر الفرنسي جزءاً من حياته ، حتى لتكاد تحسب من خلال ما كتبه عنه بأن هذا الأثر لا ينتجه إلا من كان فرنسياً، فكراً وعقلاً وثقافة وشعوراً [٨] وبشكل عام يمكننا الاطمئنان إلى أن حياة طه حسين قبل عام **١٩١٩** كانت فترة تكوين علمي ونضج عقلي اشترك في صياغته دراسته للتراث العربي والإسلامي في مرحلة الأزهر ، ثم دراسته على أيدي المستشرقين في الجامعة القديمة ، ثم انفتاحه على معطيات الثقافة الأوربية بفرنسا ، واتصاله ببيئة المستشرقين وغيرهم على نطاق أوسع . . إلى جانب حياته ذاتها في فرنسا ، حين عاش تجربة أوربية كاملة وناضجة ، وبالرغم من ذلك كله لم تنقطع صلة طه حسين بالحياة الثقافية في مصر ، وإنما ظل يكتب بين الحين والآخر كتابات غير ناضجة تماماً في الصحف المعاصرة . . ولكن اسهامه الحقيقي بدأ بعد عام **١٩١٩** ، عندما عاد متفرغاً للتدريس والكتابة ، استاذاً وكاتباً ، صاحب فكر ورأي وكلمة .

★★★

وعندما أنشىء حزب الأحرار الدستوريين عام **١٩٢٢** كانت لطه حسين صلة وثيقة بمثقفيه وعلى رأسهم أستاذه لطفي السيد فكتب في صحيفته اليومية « السياسة » وإن لم يرتبط بالحزب تنظيمياً ، وفي السياسة بدأ يتناول الأدبين العربي والغربي ، وبدأت تتبلور أفكاره واتجاهاته بشكل أنضج . . وقد تواكب ذلك تقريباً مع تبلور اتجاه دعاة التغريب في مصر ، نحو حركة رافضة لروح التوفيقية التي أرسى دعائمها محمد عبده ، وبلغت هذه الحركة درجة من التطور منذ أعقاب الحرب الأولى حين طرحت من جديد قضية تحديث مصر وإصلاح مجتمعها وأصبح السؤال المطروح هو : أيستقي الإصلاح من الينابيع الغربية بضغوطها وتأثيراتها وإغراءاتها دون سواها ؟ أم يستقي من الينابيع العربية الإسلامية وحدها ؟ وبرزت أسماء الدكتور هيكل ومحمود عزمي ومصطفى وعلي عبد الرازق ومنصور فهمي وغيرهم . . وفي نفس الفترة اكتمل وعي طه حسين وبدأ يظهر كشخصية عامة وبارزة من خلال كتاباته المنتظمة في الصحف . . وخلال هذه الفترة كانت أفكار الغرب تتدفق بشكل لم يسبق له مثيل ، دون أن تجد من يمحصها على ضوء ملاءمتها للبيئة الإجتماعية التي وفدت إليها . . وصار الناس يتداولون

مصطلحات عن اللبرالية والإشتراكية والديمقراطية والعقلانية والتجديد والمعاصرة والتحديث ونحو ذلك . .

وبدأ دعاة الإصلاح التغريبي يتجاوزون مرحلة الطهطاوي ومحمد عبده ، وكانا يقولان بدرجات متفاوتة أن الحضارة الحديثة لا تتناقض مع الاسلام(٩) . . أما أنصار الاتجاه الجديد ، وقد تلقى معظمهم تعليمه وثقافته في أوربا ، فقد أعادوا النظر في تلك الأفكار وبالذات في علاقة الدين بالدولة . . وبالعلم وبالمجتمع . . فبرز على عبد الرازق ينادي بفصل الدين عن الدولة ويحاول إثبات أن الخلافة ليست نظاماً اسلامياً ، وبرز طه حسين يدعو للفصل بين الدين والعلم ، ويردد ان العاطفة الدينية والوجدان الروحي ومعتقدات السلف ، لا علاقة لها بالعلم الحديث وقوانينه ونتائجه .

ومن خلال هذا الاتجاه سيتم اللقاء في الفكر العربي بين الإسلام وأفكار الغرب العلمانية وستتبلور لدى المؤرخين وأصحاب الدراسات الحديثه إصطلاحات غير مألوفة مثل اصطلاح « العلمانيون المسلمون » أو « العلمانية الاسلامية » ونحو ذلك من المصطلحات التي قد تنطوي على لبس وتناقض . . وسوف يستند أنصار هذا الاتجاه ايضاً إلى ما أصاب فكرة الجامعة الاسلامية والخلافة من تدهور ، ثم إلى تجربة تركيا الكمالية ، مثلما يستند بنفس القدر إلى دراساتهم واستيعابهم لنظم الغرب وأفكاره ومناهجه ، وانبهارهم بمؤسساته ونمط حياته وتقدمه . . مما أدى إلى ابتعادهم تدريجياً عن جذورهم العربية الاسلامية ، خاصة إذا تذكرنا أن معظم أنصار هذا الاتجاه الجديد قد خرجوا من صلب الأزهر(١٠) .

وبالرغم من أن طه حسين تخصص في دراسة التاريخ ثم فلسفة الإجتماع إلا أن صلته بالأدب العربي وتراثه لم تنقطع وكان ثمرة كتاباته في هذه المرحلة كتاب « حديث الأربعاء » بجزأيه الأول والثاني . . كما يتواكب مع ذلك اهتمامه بالأدب الغربي ، وكانت ثمرة كتاباته في هذا المجال كتابي « لحظات » و« صوت باريس » كذلك صحب ذلك كله اهتمام بالمقال التنويري المباشر الذي عالج فيه طه حسين موضوعات تتصل بالحضارة الغربية ذاتها وما أثارته في ذهنه من تساؤلات وقضايا جعلته يعيد النظر في قناعاته وأفكاره ، مما انعكس بشكل واضح على تكوينه آراء وقناعات جديدة تتصل برؤيته لعلاقة العلم بالدين . . وبموقفه من الأزهر . . وبتطبيقه لمناهج العلم والفلسفة الأوروبيين . . بل وبنظرته على ضوء ذلك كله للتراث العربي . . وقد عبر عن ذلك

كله في شكل رسائل جمعها في كتابه الهام « من بعيد » الذي كتبه بين عامي ١٩٢٣ ، ١٩٢٦ .

وفي خضم ذلك كله كتب طه حسين عام ١٩٢٢ في معرض حديثه عن الدين والدولة أن الإسلام لا يرى أن لقيصر في الأرض شيئاً وأن الحكومات الاسلامية تدبر السياسة باسم الدين ، وأن التطور السياسي سيفضي قريباً أو بعيداً بأن يذهب المسلمون طوعاً أو كرهاً ، مذهب الأوربيين ، فتصبح الخلافة عندهم سلطة دينية خالصة ليس بينها وبين السياسة المدنية صلة أي تصبح سلطة روحية كما يقول الأوربيون(١١) .

وفي حوار معه عام ١٩٢٣ حول موقف الشرق العربي من الحضارة الأوربية ذكر طه حسين أننا سنتصل بأوربا إتصالاً متيناً أردنا أم لم نرد، وأننا نفكر ونشعر كما يفكر ويشعر الأوربيون ونسعى لنظام سياسي كنظامهم ، وأكد أنه لابد وأن يتم ذلك كله وأن تغمر الحضارة الغربية مصر والشام حتى يصبح هذان البلدان جزأين من أجزاء أوربا ، ثم أضاف أن الرقي سيكون بطيئاً هادئاً وأنه سيحتفظ بالشخصية القومية دون أن يهمل المدنية الغربية . . وقد ميز طه حسين بين ضرورة استيعاب علوم الغرب من ناحية وبين احتفاظنا بشخصيتنا قوية وواضحة في مجال الفنون والآداب والحياة الإجتماعية من ناحية ثانية ، فلا نقتبس من أدب الغرب وفنه ونظامه الاجتماعي إلا ما يمكننا من النمو والتطور(١٢) .

وحينما كتب طه حسين « أحاديث الاربعاء » أبدى تشككه في الشعر القديم وأشار إلى مسألة انتحاله وكان ذلك مقدمة لكتابه الخطير « في الشعر الجاهلي » الذي حاول فيه أن يبلور نظرته حول قضية الانتحال . . المهم أن نلاحظ خلال تلك الفترة أنه جعل يثبت من وقت لآخر أن الدليل النقلي وحده لا يكفي وان عنعنة القدماء لا تكفي ، بل ينبغي ان يمتحن كل شيء بالدليل العقلي وبالإستقراء ، وقد اعتبر هذا بداية لفتح باب الإجتهاد في البحث الأدبي ، ولعله أيضاً يوضح كيف تأثر طه بمناهج البحث التي تعلمها عن العقلانية الفرنسية عند ديكارت . . وعن الوضعية عند كونت .

وفي نفس الفترة تقريباً كتب طه حسين مختارات من الأدب الغربي لخص ودرس فيها الكثير من الأعمال الإبداعية والنقدية الفرنسية ، أو المترجمة إلى الفرنسية ، بشتى اتجاهاتها ومدارسها ، كما قدم دراسات نقدية لأعمال مسرحية شاهدها أو قرأها في مجلة الألوستراسيون . وكان اهتمامه واضحاً بكتابات فرانسوا دي كوريل وبول هرفيو والفريد كابو وهنري باتيل وأناتول فرانس وفيكتور هوجو وإسكندر دوماس الإبن وغيرهم .

وخلال السنوات الأولى من العشرينيات راح طه حسين يختبر مناهجه بمعالجة تراث الأدب العربي بروح جديدة ، بينما كان يدرس التاريخ والأدب الكلاسيكيين ويكتب فيهما مع متابعة إبداعات الثقافة المعاصرة بدأب واهتمام ، كل ذلك كان يسير معه في خط متوازٍ إيماناً واقتناعاً بوحدة التراث الإنساني ، المستمد من الأصول اليونانية والذي ساهم فيه العرب بدورهم ، وبلغ أقصى نضجه عند الأوربيين المحدثين .

وقد عبر طه حسين عن فترة قلقه واغترابه ، بروحه وتطلعاته ، عن مجتمعه، حين بدا واضحاً تأثير الفكر الغربي في كتاباته بشكل مباشر . . وبعد تأمل طويل توصل إلى قناعات جديدة . راح يسوقها لقرائه تتعلق بمشكلة علاقة العلم بالدين وقد ظلت هذه المسألة تؤرقه زمناً طويلاً ، فأنشأ يتمنى لو أتيح للإنسان أن يكون مؤمناً وعالماً دون أن يغلو في التعصب للدين أو للعلم . . ويتساءل : أيستطيع الإنسان أن يجمع في نفسه هاتين القوتين وأن يطمئن إلى كلتيهما اطمئناناً بريئاً من التناقض والاضطراب[١٣] ؟ لقد رأى طه حسين بذلك أن الدين والعلم قوتان منفصلتان ومن ثم راح يبحث عن سبيل التقائهما في هذه المرحلة المبكرة من مراحل فكره .

وفي هذا المجال جعل يتعجب من محاولات علماء الدين إقحام قضايا العلم في الاسلام وذلك من خلال استنباط الأحكام القرآنية المتعلقة بكروية الأرض ودورانها فرأى أن الناس في الشرق يعجبون بمثل هذه المحاولات لأنها تظهرهم في منزلة الأوربيين من الحضارة ، وأبدى اعتقاده بأن ذلك يفسد النصوص الدينية ويعتبر غلواً في التأويل ، وأن من الخير في هذا المجال استخدام أسلوب الترجيح « حتى لا نحمل القرآن أوزار اضطراب العلم وتناقضه »[١٤] .

وعندما تحدث طه حسين عن ضرورة اصلاح الازهر ، كان النموذج الغربي ممثلاً في رجل الدين المسيحي ، حاضراً في ذهنه ، أنموذجاً لما يجب أن يكون عليه رجل الدين . . فيقارنه بمثيله في الشرق ، ويرى الأخير قد قصر واجباته على القاء الدروس واقامة الصلوات . . ثم أبدى اعجابه بفكرة انفصال الكنيسة عن الدولة في فرنسا ، وذكر أن انقطاع معونة الدولة للكنيسة جعلها أقوى وأغنى وأكبر تأثيراً[١٥] . . لقد كانت كل هذه الأفكار ، وغيرها توضح إلى أي مدى تغلغلت أفكار الغرب في وعي وفكر طه حسين حتى لقد أصبح لا يفكر في أوضاع بلاده إلاّ من خلال ذلك .

★★★

وعندما بدأ طه حسين يدرّس موضوعات الأدب العربي وتاريخه ، بدأ بالشعر الجاهلي

الذي كان مثار اهتمامه ومن ثم أخضعه لتأمل طويل وجعل يلقي نتائج بحثه على طلابه أولاً بأول ، ثم نشر منه مقالة بعنوان « مرآة الحياة الجاهلية يجب ان تلتمس في القرآن ، لا في الشعر الجاهلي » ثم اتبعها بأخرى تحت عنوان «وجوب درس آداب وتاريخ العرب على طريقة ديكارت »، وبدأ تدريجياً يتوصل الى فكرة رئيسية مؤداها أن ما يضاف للعرب قبل الاسلام من شعر ليس لهم وإنما لجماعة من المزيفين قالته ونحلته وردده المسلمون بعدهم . . والموضوع في حد ذاته ليس جديداً تماماً ، فقد سبق وتناوله من المستشرقين نولدكه ومرجليوث ، لذلك لم يتنبّه إليه أحد ، فالمسألة لا تعدو أن ثمة أستاذاً في الجامعة يدرس لطلابه مقرراً دراسياً أكاديمياً بمنهج علمي ، ولكن لم يكد طه حسين ينشر كتابه في ابريل من نفس العام (١٩٢٦) تحت عنوان « في الشعر الجاهلي » حتى قامت الدنيا ولم تقعد فقام لفيف من العلماء ، وعلى رأسهم الإمام الأكبر بتقديم بلاغ للنائب العام يتهمون فيه المؤلف بأنه كذب القرآن صراحة وطعن على النبي ونسبه الشريف ويطالبون بالتحقيق معه ، فسارع طه حسين بتقديم كتاب لرئيس الجامعة أعلن فيه إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وأن دروسه في الجامعة خلت تماماً من التعرض للديانات كما نشرت الجامعة بياناً كذبت فيه ما نسب إليه ، وذكرت أنه ليس من حق أية هيئة أن تتدخل في شئون الجامعة، بينما وقفت صحيفة « السياسة » مؤيدة طه حسين مدافعة عن حرية الرأي والبحث العلمي حتى ولو كان صاحبه مخطئاً.

وهدأت العاصفة الى حين . . إلى أن أثارها أحد النواب من جديد وطالب بإعدام الكتاب ومحاكمة المؤلف وإلغاء وظيفته واسترداد المبلغ المدفوع له ثمناً للكتاب . . وانتقلت الأزمة من البرلمان إلى الأزهر من جديد ، ثم إلى الصحافة فالأحزاب ، حتى أصبحت مثار اهتمام الرأي العام . بل لقد خرجت إحدى المظاهرات هاتفة بسقوط طه حسين . . وبالفعل جُمع الكتاب ومنع من التداول ، وتوقف الأمر عند هذا الحد ، حين اعتبر رئيس الوزارة أن إحالة الأستاذ للنيابة يعتبر اعتراضاً على تصرفات وزارته وطرحاً للثقة بها وهدد بالإستقالة ، وكادت المسألة تتحول الى أزمة سياسية ، لولا أن تداركتها حكمة رئيس الوزارة (عدلي يكن) ورئيس مجلس النواب (سعد زغلول) .

ولكن ازاء ضغط النواب وإثارة الموضوع من جديد من جانب الأزهر اضطر النائب العام إلى التحقيق مع طه حسين ، وحدد التهم المنسوبة إليه من واقع البلاغات في أربع تهم هي :

١ ـ أنه كذّب القرآن الكريم فيما أورده عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

٢ ـ أنه تعرض للقراءات السبع المجمع عليها ، وزعم انها ليست منزلة .
٣ ـ أنه طعن على نسب النبي الشريف .
٤ ـ أنه أنكر للاسلام أوليته في بلاد العرب وأنه دين إبراهيم عليه السلام .

وبعد أخذ ورد بين طه حسين والنائب العام في وثيقة تاريخية هامة نوّه النائب العام في النهاية بفضل المؤلف « بسلوكه طريقاً جديداً حذا فيه حذو العلماء من الغربيين ، وإن كان قد تورط في بحثه فتخيل حقاً ما ليس بحق ، وحيث أن غرضه لم يكن مجرد الطعن والتعدي على الدين ، وأن العبارات التي أوردها إنما وردت في سبيل البحث العلمي ، مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها ، وحيث أن القصد الجنائي غير متوفر ، لذلك تحفظ الأوراق إداريا »[١٦] .

وتعنينا هنا بشأن هذه الأزمة مسألتان أولهما : تطبيق طه حسين لمنهج ديكارت وثانيهما : اتهامه بسرقة أفكار المستشرق البريطاني مرجليوث . . بالنسبة للمسألة الأولى فقد ذكر طه حسين صراحة في بداية كتابه أنه سوف يصطنع مذهب ديكارت ومن ثم فلن يقبل شيئاً أتى به القدماء إلا بعد التحري والبحث ، وأنه لن ينحاز إلى أي موقف ، ومن ثم سينسى عواطفه القومية والدينية . . وقد أدى به ذلك بطبيعة الحال إلى الاعتقاد بغير ما تعارف عليه الناس ، كما خرجت منه عبارات تعتبر مساساً مباشراً بما ورد في القرآن الكريم ، ومن هنا اتهم بالكفر والالحاد . . بينما رأى نقاده أنه لم ينجح في تطبيق مذهب ديكارت ككل ، وإنما أخذ عنه بعض العناصر غير المترابطة في نسق فلسفي ، بمعنى أنه لم يستلهم أسس البناء المنهجي كله ، فشك في المسلمات واعتمد على العقل . . كما أن منهج ديكارت فلسفي في حد ذاته ووسيلة لليقين ، في حين أن شك طه حسين شك أدبي ومطلق ، ووسيلة للإنكار ، وبينما ينصب شك ديكارت على القضايا العقلية ، فان شك طه حسين انصرف الى القضايا النقلية . وفي حين أن ديكارت لم يطبق منهجه على المسائل المتصلة بالعقيدة ، نجد أن طه حسين قد فعل ذلك . .

والواقع أن طه حسين لم يتبن فلسفة ديكارت في التفكير بقدر ما وقف عند حدود الشك المنهجي مطبقاً على الأدب . . وربما يعد صحيحاً أن منهجه يعتبر ـ كما يقول محمود أمين العالم ـ تواصلاً في الحقيقة لمنهجه العقلي الصارم الذي أخذ به نفسه ، منذ رسالته عن أبي العلاء ، ولم يكن الشك الديكارتي سوى جانب واحد من منهجه العقلي العام ، ولكنه ليس سمته الأساسية[١٧] .

أما المسألة الثانية ، وهي مسألة اتهام طه حسين بأنه أسس أفكار كتابه على آراء قدمها مرجليوث في مقالة له نشرت عام ١٩٢٥ بعنوان « أصول الشعر العربي » وأنه استقى منه ما يتعلق بشواهد الدين واللغة . والوقع أنه يمكن القول بأن طه حسين قد أفاد من أفكار مرجليوث على نحـو ما يستفيد المشتغلون بقضـايا الثقـافـة والفكـر من آراء بعضهم البعض ، كما أنه كانت لطه حسين أفكار أخرى لم يتطرق إليها مرجليوث ، إلى كونه استفاد على نطاق أوسع من روايات « ابن سلام الجمحي » في كتابه « طبقات فحول الشعراء » ، وربما أراد طه حسين أن يثبت أنه كعربي لا يمكن أن يكون دون المستشرق في الإستنباط والإستنتاج والتوسع في فهم دلالات الأخبار وقد أكدت زوجته هذا المعنى في كتابها عنهما « معك » نقلاً عن رسالة منه إليها ذكر فيها أن أبحاثه تصل إلى نتائج كبار المستشرقين . . وقد حقق (د. يحيى الجبوري) هذه المسألة عندما نشر ترجمة كاملة وأمينة لمقالة مرجليوث . . كذلك فقد نشر مؤخراً (د. ابراهيم عبد الرحمن) ترجمة لمقالة جديدة لمرجليوث تعتبر وثيقة أدبية تبرىء طه حسين كانت قد نشرت عام ١٩٢٧ يذكر فيها المستشرق أن فكـرة طه حسـين مماثلة للفكـرة التي أدار حولهـا بحثه ، وأن كليهما قد توصل ، مستقلاً عن الآخر ، الى نتائج متشابهة . . وثمة فارق جوهري بين آراء طه حسين وآراء مرجليوث ، فبينما ينكر المستشرق أن يكون الجاهليون قد نظموا شعراً ، نرى طه يذهب إلى الثقة في وجود شعر جاهلي ، ولكنه يتشكك في صحة الكثير من نصوصه بسبب تحريف الرواة ، كما ان الشواهد الدينية واللغوية التي قيل أن طه حسين قد سطا عليها ليست من ابتداع مرجليوث وإنما هي من قبيل الأفكار الشائعة في التراث النقدي . . وقد اعترف طه حسين بأنه لم يطلع على مقالة مرجليوث إلا بعد عام من صدور كتابه(١٨) .

لقد أعاد طه حسين طبع كتابه في العام التالي بعد أن غير عنوانه وأصبح « في الأدب الجاهلي » وحذف منه الفصل الذي أثار المعركة وأضاف فصولاً جديدة فهل تراجع عن أفكاره ؟ لا نعتقد ذلك لأن الضجة التي أثارتها العبارات المتعلقة بالدين قد غطت على جوهـر الكتـاب ، وهـو المنهـج الذي أراد ترسيخه ، فكان أشبه بمناورة بدا ظاهرها التراجع ، في حين أن الفصول الأربعة التي أضافها كانت تدعم المنهج وتؤصله . . وقد فطن الغمراوي في كتابه « النقد التحليلي » الى حقيقة ذلك حين ذكر أن « المنقود قد عاد فانبعث بعد أن غير زيه وأنه لم يغير من حقيقة الكتاب ، فكتاب في الأدب الجاهلي هو كتاب في الشعر الجاهلي بروحه وغايته وطريقته(١٩) . . »

وفي تقديرنا أن العبارات التي وردت بكتاب « في الشعر الجاهلي » التي اعتبرت مساساً بالدين ، والتي حذفها في الطبعة المعدلة هي التي كانت وراء اتساع دائرة اتهام طه حسين بالسطو على أفكار المستشرقين ، وربما لو جاءت الطبعة الأولى خلواً من هذه العبارات ، وهي ما كانت تؤثر بالضرورة في بحثه الأدبي ، لما كان هناك ثمة داع للاتهام . . وإن كان هذا لا ينفي أن عباراته المتعلقة بالدين جاءت خلواً من وضعه موضع التقديس والإجلال الكاملين ، تحت زعم البحث العلمي المتحرر ، في فترة كان فيها منبهراً بنتائج وأبحاث المستشرقين ومندفعاً بحماسة الشباب ، التي حالت بينه وبين التأمل الطويل والمراجعة المتأنية .

وفي نفس عام الأزمة نشر طه حسين عدة مقالات تحت عنوان « بين العلم والدين » أكد فيها على أن الخصومة بين العلم والدين جوهرية وقديمة ، ولا سبيل إلى إزالتها إلا بأن ينسى كل منهما صاحبه نسياناً تاماً . . وقد نسى طه حسين أو تناسى أنه وهو يعرض لقضية الشعر الجاهلي بمنهج علمي حديث لم يستطع نسيان الدين نسياناً تاماً . . وقد أضاف أن السياسة هي التي تتدخل بين العلم والدين فتفسدهما معاً ، ثم عاد يؤكد من جديد على إيمانه بالتفكير العلمي المجرد ، الذي لا يتأثر بالعصبية الجنسية أو الدينية . . كذلك دعا إلى استبعاد فكرة الحكومة الدينية وإقامة الوطنية على أساس المنافع الاقتصادية والسياسية الخالصة . ورأى أن مصر تسرع الخطى لتصبح جزءاً من أوربا ، وأن حكومتها أصبحت تأتي من الأمور ما لم يبحه الاسلام ، فهي تتعامل بالمصارف وتنظم الربا وتبيح ألوانا من المعصية[٢٠] ! !

لقد بدت في هذه الأفكار تأثيرات العلمانية الغربية التي رددها طه حسين وإن لم تتفق وطبيعة مجتمعه العربي الإسلامي ، لأن نظرته إلى الوجود ، في هذه المرحلة من حياته ، لم تكن نظرة دينية ، لذلك رأى في العلم ما قد يناقض الدين ولاسيما في أساليبه العلمية الخالصة ، وكان واضحاً كم تأثر بفلسفة كونت الوضعية التي تؤكد انفصال الحقيقة الدينية عن الحقيقة العلمية ، وأن النظرة الدينية إلى الوجود إنما تشكل فقط مرحلة من مراحل تطور البشرية .

وتمادى طه حسين لأبعد من هذا حين تساءل عام ١٩٢٨ في كتابه « رحلة الصيف » لماذا لا يكون من حق الناس أن يعلنوا آراءهم في الكتب المقدسة من حيث هي موضوع للبحث العلمي والفني بقطع النظر عن مكانتها الدينية ؟ وذكر أن الغربيين قد كسبوا

لأنفسهم هذا الحق وأنهم يدرسون الكتب الدينية ويعلنون نتائج درسهم في حرية وصراحة[٢١] . وكان طه متأثراً في ذلك بأفكار أستاذه كازانوفا وبطريقته في تفسير القرآن بالكوليج دي فرانس . . كما كان متناقضاً مع دعوته لابعاد العلم ومناهجه عن الدين .

★★★

ومنذ عام ١٩٣٣ اشترك طه حسين في موجة معالجة الموضوعات الإسلامية والتي كان فرسانها العقاد والدكتور هيكل وأحمد أمين وتوفيق الحكيم[٢٢] ، والتي على أثرها نشر في عام ١٩٣٥ وحده نحو عشرين كتاباً عن الاسلام ، عدا المجلات الإسلامية ، وكان وراء هذه الظاهرة تدهور المادية الغربية وعجزها ، ولجوء كنيستها إلى موجة عارمة من التبشير ، بالاضافة الى الفزع من الشيوعية مما دفع الجميع إلى الاعتصام بالعقائد واللياذ بالاسلام[٢٣] . . وكان التحول ظاهرة جماعية اشترك فيها طه حسين بكتابه « على هامش السيرة » حين عبر في مقدمته عن تشككه في قيمة العقل وحده ، وضرورة عدم التسليم به في شأن المعجزات . . وبدا كما لو كان رافضاً للالحاد الذي توصل إليه العقلانية العلمية إذا ما بلغت أقصى غاياتها .

وعندما سئل طه حسين عن هذا التحول في أواخر أيامه أجاب : هل كان واجبنا المقدس أن نترك هذه الموضوعات للمستشرقين ؟ ان العلم ليس حكراً عليهم ونحن أولى بتاريخنا منهم . . إن الاسلام ثقافة عالمية ومرحلة من مراحل الرقي الانساني عظيمة ، فهل تصبح دراسته أقل شأناً من دراسة امرىء القيس ؟ . . إننا لم نتخل عن مناهجنا التي درسنا بها الشعر وغير الشعر ، وطبقناها على روح العقيدة ، لقد كان الاسلام مدخلنا لترسيخ المنهج ، وكان المنهج مرشدنا إلى اقتلاع الخزعبلات من جذورها[٢٤] . . »

إن طه حسين لم يتغير إذن وإنما ارتاد ميداناً جديداً ، يتفق مع اتساع اهتماماته وميادين كتابته ، وليس غريباً أن يشعر بضرورة البحث في الأصول الإسلامية بوعي المنهج الحديث الذي تعلمه من حضارة الغرب . . وعموماً لقد ظل أميناً خلال الثلاثينيات لاهتماماته المزدوجة بالأدبين العربي والغربي ، فعاود نشر فصول جديدة من « حديث الأربعاء » ، بينما كتب باباً أسبوعياً ثابتاً بصحيفة الجهاد تحت عنوان « في الأدب الغربي » . . ومثلما كتب عن فولتير ورسو ورينان وبول فاليري وأندريه جيد ، وترجم أندروماك لراسين ، كتب أيضاً عن المتنبي واستكمل دراسته لحافظ وشوقي ، وكتب عن أبي تمام والبحتري وابن الرومي دراساته التي ضمها « حديث الشعر والنثر »[٢٥] .

فمازال إعجاب طه حسين بالحضارة الغربية قائمًا ، ومازال دائب البحث في التراث العربي بوعي المنهج . . ومازالت في أوربا ـ كما كتب ـ قوة خصبة غزيرة تؤهلها للسلطان الواسع ، وانه من العجز أن نلهي أنفسنا عن السعي والجد حتى نبلغ ما بلغه الغربيون . . كما لازال على قناعة بأن لنا مقومات خاصة مهما أصبحنا نطمئن إلى أن الحضارة الغربية ضرورة من ضرورات حياتنا ، وأن هذه المقومات الخاصة ليست حاجتنا اليها بأقل من حاجتنا إلى الحضارة الحديثة . وعاد في كتابه « من لغو الصيف إلى جد الشتاء »[٢٦] ليؤكد على أهمية الملاءمة بين هذه الحضارة التي نقلت إلينا بالفعل ، وبين أشياء أخرى لابد لنا من أن نحتفظ بها لنكون أمة مستقلة .

★★★

وبعد أن وقّعت مصر مع انجلترا معاهدة التحالف عام ١٩٣٦ ومع الدول الأوربية معاهدة إلغاء الامتيازات الأجنبية عام ١٩٣٧ اعتقد طه حسين أن مصر بموجب المعاهدتين أصبحت حليفة لانجلترا ولأوربا ، ونداً لهما ، وأنها تستقبل عهداً جديداً ستأخذ فيه من الحضارة الحديثة بنصيب أوفر ، لذلك طرح أفكاره السابقة وعاد إلى الدعوة إلى تبني أسباب الحضارة الأوربية تبنياً كاملاً ، داعياً إلى التغريب الصريح والتام . . وجاء كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » تقريراً كاملاً ومفصلاً عن مفهومه الجديد والمطور . . استجمع فيه كل أفكاره السابقة عن التحديث والتمدين والاستفادة من النموذج الغربي ، وبعد أن كان ينادي بنقل التراث والمناهج الغربية إلى مصر ، راح يلحق مصر ذاتها بأوربا ، ويستنبط من التاريخ ، مع الغلو في التفسير ، ما يؤيد فكرة أن مصر كانت دوماً جزءاً من أوربا من خلال عالم البحر المتوسط[٢٧] ، ومن ثم نادى بالحاقها بها من جديد ، مع ما يعنيه ذلك من أن تشيح بوجهها عن الشرق، ولو كان عربياً إسلامياً . . لقد لجأ طه حسين إلى التدليل على فكرته بكثير من التعميمات والتجاوزات . . حتى ليعد كتابه هذا ـ في تقديرنا ـ أكثر خطورة وأهمية من كتابه « في الشعر الجاهلي » الذي دعا فيه لمجرد تطبيق منهج أوربي قاده للتشكيك في المسلمات . . كما أنه عاد ليطالب بفصل الدين عن الدولة بشكل قاطع .

لقد حاول طه حسين أن يجد ما يحل به الصراع بين حبه لوطنه وألمه لتخلفه من جهة ، واعجابه بالغرب ونقمته عليه ، لأنه أسهم في هذا التخلف من جهة أخرى ، فأنكر أن تكون مصر بلداً شرقياً ، إلا بالمعنى الجغرافي ، وجعلها جزءاً من أوربا في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية . . مستعيناً في ذلك بنظرية بول فاليري عن خصائص العقل

الأوربي ، حيث وجدها تنطبق على العقل المصري ، وأكد أن الشرق الذي يعنيه « كبلنج » لا يصدق على مصر .

وحتى لا يبدو طه حسين متنكراً لهويته المصرية المسلمة راح يؤكد بالقرائن التاريخية أن الاسلام ذاته من مقومات الفكر الأوربي ، لأنه عرف أوربا بالتراث القديم ، ليصل بذلك إلى نتيجة مؤداها أن حضارة مصر المسلمة تعد أصلاً من أصول الحضارة الأوربية ، وأنه لا ينبغي للمصري أن يشعر بالنقص الذي يعانيه الشرقيون لقد حاول طه حسين بذلك كله أن يوفق بين هويته المصرية المسلمة التي أودعها فيه تراثها ، واعتز بها ، وبين هويته الأوربية التي اكتسبها من ثقافته وأعجب بها[٢٨] .

كذلك فقد ذهب طه حسين إلى التدليل على أن حياتنا المادية أوربية خالصة وأن المثل الأعلى للمصري في حياته المادية هو المثل الأوربي ، وأننا نفعل ذلك في حياتنا العملية عن علم به وتعمد ، ولكننا ننكر ذلك في ألفاظنا وعقائدنا ، فنتورط في نفاق بغيض ! . وقد وجد في تغلغل النظم التعليمية والتشريعية والسياسية الغربية إلى حياتنا شاهداً ودليلاً على صحة أفكاره . ورأى أن السبيل لازالة الهوة التي بيننا وبين أوربا هي أن نسير سيرتها ونسلك طريقها لنكون لها أنداداً وشركاء في الحضارة . . وأنشأ يكرر أنه لا يدعو إلى شيء عملي وإنما يدعو إلىء شيء نفسي ، فقد دخلت علوم أوربا وفنونها الأزهر ذاته كذلك هاجم طه حسين الفكرة الشائعة عن روحانية الشرق ، حيث اعتبره مهد العقل الذي يزدهر في أوربا الآن . .

وبالرغم من ذلك كله يؤكد طه حسين أنه لا يدعو لأن ننكر أنفسنا . ولا أن نجحد ماضينا ولا أن نفني في الأوربيين وتساءل مستنكراً : كيف يستقيم ذلك وأنا أدعو إلى أن نثبت لأوربا ونحفظ استقلالنا من عدوانها وطغيانها[٢٩] ؟

وهكذا يبدو أن طه حسين في أواخر الثلاثينيات قد بلغ قمة دعوته للتغريب وقال كل ما يمكن أن يقوله في هذا المجال . . ولكنه منذ عام **١٩٣٩** عاد تدريجياً يتذكر الشخصية القومية لمصر ، ويتحدث عن روح الأدب المصري . . كما جعل يخضع قناعاته السابقة لكثير من التأمل والتحليل والمراجعة . . ومن هنا عاد إلى نقطة بدايته مع أبي العلاء المعري . . كأنما ليعيد النظر في مسيرته هو ، فكتب عنه كتابه « مع أبي العلاء المعري في سجنه » عام **١٩٣٩** وأرجع محنة المعري ـ كأنما يتحدث عن نفسه فيما يشبه المناجاة ـ

إلى أنه اتخذ العقل إماماً واعتبره نبياً ، ثم أكد أن العقل وحده لا يصلح ملكة للمعرفة . . وكان طه حسين قد توصل إلى ارهاصات هذه الأفكار منذ جرفته موجة الموضوعات الاسلامية وكتب « على هامش السيرة » حين ذكر فيه أن للانسان ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا عن العقل كما عاد في كتابه « مرآة الإسلام » ليفسر الشقاق بين زعماء الفرق الاسلامية بأنهم آمنوا بالعقل وحده ، وحكموه في كل شيء ، وزعموا أنه وحده مصدر المعرفة[٣٠] .

ومن الطريف أن طه حسين قد أباح لنفسه حضور مجلس من مجالس الذكر عام ١٩٤٠ وسخر من سخرية المثقفين منه ، وذكر هامساً أنه يحب هذه المجالس ويجد فيها نفسه الضائعة[٣١] ! .

بل لقد ذهب طه حسين لأبعد من هذا وأبعد من مراجعة نفسه بشأن سيادة العقل وحده ، وسيادة التراث الغربي ، بأفكاره ونظمه وحده أيضاً ، فكتب عام ١٩٤٦ في كتابه « ألوان » يتعجب من أولئك الذين يفكرون في العدل الاجتماعي وينظرون إلى ما وراء البحر المتوسط ليلتمسوا في أوربا هذه الأفكار ولا ينظرون إلى فكرة العدل الإجتماعي كما وجدها المسلمون قبل أن ينتصف القرن الأول للهجرة وأضاف : لا أريد أن نستعير من أوربا هذا المذهب أو ذاك وإنما أحب أن ألفت إلى أن لنا في المطالبة بالعدل الاجتماعي تاريخاً حافلاً يستحق أن نرجع إليه فنحن لسنا عيالاً على المطالبين به من الأوربيين[٣٢] . . وهكذا راح طه حسين يستوحي من التراث العربي الاسلامي ما يواجه به فكر الغرب ونظرياته . متعجباً من كيفية الاعجاب الأعمى بالغرب وأفكاره مع الجهل التام بمضمون التراث الاسلامي وعناصر القوة والحيوية فيه .

وفي كتابه « الفتنة الكبرى » (جـ ١) الذي نشره عام ١٩٤٧ كتب أن الانسانية سلكت في سبيل الحكم الصالح والعدل الإجتماعي كل الطرق وجربت كل النظم ولم تنته الى غاية ومازالت تشكو من الظلم وتضيق بالاستذلال والاستغلال وتبحث عن النظام القويم الذي يضمن للناس الحرية والعدل جميعاً ، وهذا النظام هو الذي حاولت الخلافة الاسلامية لعهد أبي بكر وعمر أن تنشئه . . وراح في كتابه هذا يقف أمام هذه التجربة بكثير من التأمل والأناة[٣٣] .

وخلال نفس الفترة كتب « المعذبون في الأرض » ليلقي نظرة شديدة التشاؤم على مستقبل النظام اللبرالي القائم الموجه صوب البحر المتوسط غرباً . . وذلك من زاوية

إخفاقه في تحقيق الحد الأدنى من العدالة الإجتماعية للجموع الآدامية المريضة الجاهلة ، التي أصبح القول بأنها تنتمي بجذورهاالحضارية لأوربا وأن عقلها أوربي ، ضرباً من الترف الفكري[٣٤] .

وسوف نلاحظ أن طه حسين يدعو إلى تقليد أوربا في الغايات وليس في الوسائل « لأن مجتمعنا له طبيعة خاصة ، كما أن التشبه بأوربا غاية لا تقصد لذاتها . . وتقليد أوربا في دساتيرها ونظمها السياسية والإدارية ، ليس ليعرف العالم أننا لسنا أقل من أوربا تقدماً ، سواء عملت هذه الدساتير أو النظم كما تعمل مثيلاتيها في أوربا أم لا ، واعتبر ذلك نوعاً من الفشل ومن ثم دعا لإعادة تقييم هذه التجربة برمتها ، ـ كما ذكر في كتابه « بين بين »[٣٥] .

وفي محاضرة ألقاها بالفرنسية عام ١٩٥٠ بالمركز الجامعي لدول البحر المتوسط بمدينة « نيس » استعرض تاريخ العلاقات المصرية ـ الفرنسية منذ بونابرت وأشار إلى أهمية هذه العلاقات في بناء مصر الحديثة ، وطالما ردد طه حسين هذه الأفكار ولكن الجديد هنا ـ كما يعلق مترجمها د. حامد طاهر[٣٦] ـ أن طه حسين حاول حقاً أن يثبت أن لمصر مقومات البلد القادر على منافسة ، أو على الأقل مجاراة الأوربيين ، وأنه قد تلاشت من محاضرته نغمة تبعية مصر للغرب .

وفي عام ١٩٥٥ زار طه حسين الحجاز واعتمر وخطب في جدة في مؤتمر اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية أن الغرب الأوربي والأمريكي على تفوقه مدين بعلمه للأصول العربية الخصبة ، وطالب الأوربيين بأن يردوا ما عليهم من دين وألا يسرفوا في العزة والإثم ، ودعا إلى التعمق في العلم والثقافة فنأخذ ما يلائم طباعنا وأمزجتنا لننتفع به في ترقية حضارتنا حتى لا نكون عيالاً على الأوربيين والأمريكيين[٣٧] . .

وقد كتب في كتابه « نقد واصلاح » عام ١٩٥٥ يدفع عن نفسه تهمة فنائه في الحضارة الغربية وذكر أنه طالما دافع عن الحضارة العربية والاسلامية وعن الاسلام ذاته ، وأنه لا يخاصم المسلمين عن الاسلام ، وإنما يخاصم عنه غير المسلمين في غير موطن من أوربا وأضاف أنه اتهم في بعض البيئات الأوربية بالتعصب للاسلام[٣٨]

وفي عام ١٩٥٩ كتب في « مرآة الاسلام » أن المستعمرين الأوربيين في هذا العصر يوشكون أن يفرضوا علينا ضروباً من العلم ، قد تخرجنا من الجهل ولكنها ستقطع

الأسباب حتى بيننا وبين تاريخنا وتفنينا في الأمم المستعمرة إفناءً وإن سبيلنا إلى يقظة خصبة هي أن نتذكر ما نسينا من تراثنا القديم ونعرفه حق المعرفة ، وأن نستدرك ما فاتنا من العلم الحديث وأن نبتغي اليه الوسائل وأن نوطنه في بلادنا ونجعله ملكاً لنا وأن نشارك المستأثرين به مشاركة الأنداد[٣٩] .

وفي أوائل الستينات كتب طه حسين عن ضرورة إحياء التراث العربي الاسلامي بل وشارك بنفسه ، وأشرف على تحقيق العديد من كتبه ، على نحو ما هو معروف وعلل ذلك بمقاومة ما يُكاد لنا من المستعمرين وأعوانهم ، وحتى نتلقى أنواع الثقافات منتفعين بها دون أن تفني فيها شخصيتنا[٤٠] وأضاف أن رقي أمتنا يكون بحرصها على أن تكون حياتها مزاجاً معتدلاً من المحافظة على تراثنا العربي القديم والأخذ بأسباب العلوم والثقافات التي يعيش عليها العالم الحديث . . وفي حديث له عن الشعر الحر أعلن أنه ليس من خصومه وذكر أن الغربيين جددوا فيه وانتصروا رغم أنصار القديم ثم تساءل : ما بالنا نذهب إلى الغرب ونحن نستطيع أن ننظر في تاريخ شعرنا العربي فنراه قد تعرض لألوان مختلفة من التجديد[٤١] ؟ .

وهكذا عاد طه حسين إلى التراث العربي والإسلامي ، متخففاً من ثقل وبريق الحضارة الغربية ، مفتشاً عن أصول وإمكانات النهضة في هذا التراث بعقلية جديدة ومنطق متوازن . . موفقاً بين الجيد والنافع منه وبين حاجة التطور وسنته التي تقضي بالافادة من علوم الغرب وفنونه وآدابه ، بغير انبهار أو فناء فيه ، وبنفس القدر بغير تقديس أعمى للتراث برمته لمجرد أنه تراثنا . . ولعلنا لاحظنا أنه وهو في قمة دعوته وحماسته لفكر الغرب وثقافته لم يفقد أرضيته التي انطلق منها ، وهي أرضية عربية إسلامية . . فلم يترك تراثها أو يجافيه ولم ينعزل تماماً في الغرب أو يفنى فيه ، بل إنه وهو في قمة أزمته عند تطبيق منهج غربي كان يعالج موضوعاً تراثياً وهو الشعر الجاهلي وخلال الأربعينات وما تبقى من حياته عاد إلى توفيقية أستاذه محمد عبده ، وعاد إلى الملاءمة والمواءمة ، وعادت الخصوصية محور اهتمامه من جديد ، بعد رحلة شاقة ومرهقة في البحث عن التطور والحداثة . . إن لم تكن عن الايمان .

★★★

الحواشـــي والاحـــالات

(١) أنظر لويس عوض : ثقافتنا في مفترق الطرق، ص ١٢٠ وما بعدها.

(٢) طه حسين : الأيام، جـ ٢ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ ، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ (المجلد الأول من المجموعة الكاملة) .

(٣) (الجريدة ، في ٣١ / ١٠ / ١٩١٠ ، ٤ / ١١ / ١٩١٠ (مقالتا طه حسين) . وراجع محمد سيد كيلاني : طه حسين الكاتب والشاعر ، ص ٣٩ ـ ٤١ .

(٤) طه حسين : الأيام ، جـ ٣ (المجموعة الكاملة) ص ٤٤٦ .

(٥) المصدر السابق ص ٥٧٩ .

(٦) المصدر السابق ص ٥٦١ ، وانظر كذلك : حمدي السكوت وآخر : أعلام الأدب الحديث في مصر (١) طه حسين ، ص ١٥ ، عبد العزيز شرف : طه حسين وزوال المجتمع التقليدي ، ص ٢٩ ـ ٣١ .

(٧) حول طه حسين والدراسات الكلاسيكية راجع : شكري عياد : طه حسين والثقافة اليونانية ، عدد فبراير من مجلة الهلال ١٩٦٦ ص ١٠٣ ـ ١٠٥ ، لويس عوض : المرجع السابق ص ١٢١ ، غالي شكري : ماذا يبقى من طه حسين ص ٥٠ ـ ٥٢ .

Safran , N. , Egypt in Search ... P . 130 .

(٨) الأب كمال قلته : طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في تكوينه (عن كتاب محمود الاستانبولي : طه حسين في ميزان الأدباء والعلماء ص ٤٠٣ ـ ٤٠٦) .

(٩) غالي شكري : النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث ، ص ٢٥٣ .

(١٠) أحمد زكريا الشلق : حزب الأحرار الدستوريين ، ص ٤٧٧ ـ ٤٧٩ .

(١١) السياسة ، ٥ نوفمبر ١٩٢٢ (مقال مسألة الخلافة لطه حسين).

(١٢) الهلال ، اول يناير ١٩٢٣ (استفتاء دار الهلال حول نهضة الشرق) .

(١٣) طه حسين : من بعيد ص ١٦ ـ ١٧ (مقال : في السفينة ، أول أبريل ١٩٢٣) .

(١٤) المصدر السابق ص (٤٨ ـ ٥١) (مقال : شك ويقين ، أبريل ١٩٢٣) .

(١٥) المصدر السابق ص ١٦٦ ، ١٧٣ (مقال : الخيل الخيل ، ما يو ١٩٢٣) .

(١٦) حول قضية الشعر الجاهلي راجع قرار النيابة في كتاب الشعر الجاهلي ص (٣١ ـ ٣٢ ، وكتاب طه حسين : في الشعر الجاهلي ص ١ ـ ٤٢، أحمد كمال زكي : في الشعر الجاهلي ، نظرة أم نظرية ، هلال فبراير ١٩٦٦ ص ١٦٧ ، مجلة الفجر في ١١ ، ٢٥ أبريل ١٩٢٦ (مقالتا طه حسين) ، السياسة في ١٣ مايو ، ٧ يوليو ١٩٢٦ ـ غالي شكري : النهضة والسقوط ص ٢٤٨ ـ ٢٥١ ، ماذا يبقى من طه حسين ص ٦٨ ـ ٦٩ ، سامح كريم : ماذا يبقى من طه حسين ص ٨٤ ـ ٨٥ ـ خيري شلبي : محاكمة طه حسين ص ١٤ ، نجاح عمر : طه حسين أيام ومعارك ، ص ٥٤ ـ ٥٦ .

(١٧) حول طه حسين ومنهج ديكارت راجع : ترجمة ودراسة يحيى الجبوري لكتاب مرجليوث : أصول الشعر الجاهلي ص ٣٢ ، محمد فريد وجدي : نقد كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢ ـ ٩ ، مصطفى صادق الرافعي : تحت راية القرآن ص ١٣٨ ـ ١٥٠ ـ طه حسين : من بعيد ص . ٢٩ ـ ٢٩٦ ـ كامل زهيري : طه حسين رجل ومنهج ، هلال فبراير ١٩٦٦ ص ١١٠ ـ ١١١ ، محمود أمين العالم طه حسين مفكراً ، هلال فبراير ١٩٦٦ ص ١١٧ ـ ١٢٠ .

(١٨) انظر كتاب الجبوري : ترجمة ودراسة أصول الشعر الجاهلي لمرجليوت ص ٣٦ ، ص ٤٣ ـ ٤٤ ، أحمد كمال زكي : مقاله في الهلال ص ١٦٧ ، سوزان طه حسين : معك ص ٧٦ ، صحيفة الأهرام ٣ ، ١٧ فبراير ١٩٨٦ ، مقالتا عبد الرشيد الصادق : عن طه حسين ومرجليوث بالأهرام ٣١ أكتوبر ، ٧ نوفمبر ١٩٨٦ .

(١٩) راجع كتاب محمد أحمد الغمراوي : النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي ، ص ١١ ـ ١٤ .

(٢٠) طه حسين : من بعيد ص ٢٠٦ ـ ٢١٠ ، ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

(٢١) طه حسين : رحلة الربيع والصيف ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ وما بعدهما .

(٢٢) حول موجة التحول للموضوعات الاسلامية أنظر :

Smith, Charles , The , Crisis of Orientation p.p. 382 - 410 .

(٢٢) محمد جابر الأنصاري : تحولات الفكر والسياسة ص ١١٥ وما بعدها ، نازك سابا يارد : الرحالون العرب وحضارة الغرب ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ .

(٢٤) غالي شكري : ماذا يبقى من طه حسين ص ٦٠ ـ ٦٤ ، حديث طه حسين له .

(٢٥) حول إيمان طه حسين بوحدة العقل الانساني لتفسير انتقالاته راجع الدراسة القيمة والممتعة لجابر عصفور : المرايا المتجاورة ص ٨ ـ ٣ ، ص ٢٣٢ ـ ٢٤٤ .

(٢٦) طه حسين : من لغو الصيف إلى جد الشتاء ص ١٥٨ ـ ١٦١ وكذلك ، أحاديث ، ص ١٢٤ ـ ١٢٦ .

(٢٧) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ص ١٤ ـ ٢٠ .

(٢٨) نازك سابايارد. : الرحالون العرب وحضارة الغرب ، ص ٣٣٥ ـ ٥٣٦ .

(٢٩) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ، ص ٥٤ ـ ٥٧ .

(٣٠) طه حسين : على هامش السيرة ، جـ ١ ، ص ١٧٦ ، مرآة الاسلام ، ص ١٦٧ وما بعدها ، مجلد اسلاميات طه حسين .

(٣١) طه حسين : من لغو الصيف ، ص ١٧٥ .

(٣٢) طه حسين : ألوان ، ص ٥٤٨ وما بعدها ، المجلد السادس من المجموعة الكاملة لطه حسين .

(٣٣) طه حسين : الفتنة الكبرى ، عثمان ، ص ٦٦٤ ـ ٦٦٥ ، مجلد الاسلاميات .

(٣٤) أنظر كتاب الأنصاري السابق ذكره ص ٩٧ .

(٣٥) طه حسين : بين بين ، مقال الوسائل والغايات ، ص ١٠٤ ـ ١٠٩ .

(٣٦) طه حسين : مصر وفرنسا ، محاضرة ترجمة وتقديم حامد طاهر ، ص ٥٣ .

(٣٧) سامي الكيالي : مع طه حسين ص ١١٥ وما بعدها . وقد ذكر أنه حجّ والمعروف أنه اعتمر فقط .

(٣٨) طه حسين : نقد وإصلاح ، ص ٢٦ ـ ٢٧٣ .

(٤٠) حمدي السكوت وآخر : أعلام الأدب الحديث في مصر ، (١) طه حسين ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ قائمة بالكتب التي حققها والتي أشرف على تحقيقها .

(٤١) طه حسين : كلمات ، ص ٩١ ـ ٩٣ .

★★★

المصـــادر والمراجـــع(*)

وثائق : قرار النيابة في كتاب في الشعر الجاهلي مطبعة الشباب ، القاهرة ، مارس ١٩٢٧ .

دوريات : صحيفة السياسة : نوفمبر ١٩٢٢ ، ١٣ مايو ١٩٢٦ .

٧ ، ١٦ يوليو ، ٢٧ سبتمبر ١٩٢٦ .

٢٠ ، ٣٠ أكتوبر ١٩٢٦ ، ٥ نوفمبر ١٩٢٦ .

مجلة الهلال : عدد أول يناير ١٩٢٣ .

صحيفة الأهرام : ٣ ، ١٧ يناير ١٩٨٦ ، ٧ فبراير ١٩٨٦

١٤ ، ١٦ ، ٣١ أكتوبر ١٩٨٦ ، ٧ نوفمبر ١٩٨٦ .

مذكرات وذكريات :

- طه حسين : الأيام ، ثلاثة أجزاء ، المجلد الأول من المجموعة الكاملة ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٤ .
- سوزان طه حسين : معك ، الطبعة الثانية ، ترجمة بدر الدين عردوكي ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٢ .

من مؤلفات طه حسين :

- في الشعر الجاهلي ، الطبعة الأولى ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ .
- رحلة الربيع والصيف ، الطبعة التاسعة ، دار العلم بيروت ١٩٨١ .
- من بعيد ، الطبعة التاسعة ، دار العلم بيروت ١٩٨٢ .
- بين بين ، الطبعة الأولى ، دار العلم بيروت ١٩٨١ .
- خصام ونقد ، الطبعة الثانية عشرة ، دار العلم بيروت ١٩٨٥ .
- كلمات ، الطبعة الثانية ، دار العلم بيروت ١٩٧٧ .
- من لغو الصيف إلى جد الشتاء ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦١ .
- أحاديث ، الطبعة السادسة ، دار العلم بيروت ١٩٧٧ .
- نقد واصلاح ، الطبعة التاسعة ، دار العلم بيروت ١٩٨٢ .
- من لغو الصيف ، الطبعة الرابعة ، دار العلم بيروت ١٩٧٢ .
- مستقبل الثقافة في مصر ، مطبعة المعارف ، القاهرة ١٩٣٨ .
- ألوان ، المجلد السادس من المجموعة الكاملة ، بيروت ١٩٧٣ .
- إسلاميات طه حسين ، الطبعة الثالثة ، دار العلم ، بيروت ١٩٨١ .
- محاضرة بالفرنسية « مصر وفرنسا » ١٩٥٠ ، ترجمة وتقديم حامد طاهر ، مجلة دراسات عربية وإسلامية ، القاهرة ١٩٨٥ .

(*) تضم هذه القائمة المراجع التي استفاد منها الكاتب سواء بنقل نصوص منها أو بالاستفادة منها بشكل غير مباشر .

دراســـات ومؤلفـــات :

- أحمد كمال زكي في الشعر الجاهلي ، نظرة أم نظرية ، مجلة الهلال فبراير ١٩٦٦ .
- ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ، ترجمة كريم عزقول ، بيروت ١٩٦٨ .
- جابر عصفور : المرايا المتجاورة ، دراسة في نقد طه حسين ، القاهرة ١٩٨٣ .
- حمدي السكوت ومارسدن جونز : أعلام الأدب الحديث في مصر ، (١) طه حسين ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٢ .
- خيري شلبي (محققاً) : محاكمة طه حسين ، بيروت ١٩٧٢ .
- سامح كريم : ماذا يبقى من طه حسين ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٥ .
- سامي الكيالي : مع طه حسين ، دار المعارف بمصر ، مجموعة إقرأ ، نوفمبر ١٩٧٣ .
- شكري عياد : طه حسين والثقافة اليونانية ، مجلة الهلال ، فبراير ١٩٦٦ .
- عبد الرشيد الصادق : العميد ومرجليوث والنقد الحديث ، الأهرام (٣ أكتوبر ، ٧ نوفمبر ١٩٨٦ .
- غالي شكري : ماذا يبقى من طه حسين ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٤ .
- غالي شكري : النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث ، تونس ١٩٨٣ .
- كامل زهيري : طه حسين رجل ومنهج ، مجلة الهلال فبراير ١٩٦٦ .
- لويس عوض : ثقافتنا في مفترق الطرق ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٤ .
- لويس عوض : الحرية ونقد الحرية ، القاهرة ١٩٧١ .
- محمد أحمد الغمراوي : النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي ، طبعة بيروت ١٩٨١ .
- محمد جابر الأنصاري : تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي ، الكويت ١٩٨٠ .
- محمد سيد كيلاني : طه حسين الشاعر والكاتب ، طبعة أولى ، القاهرة ١٩٦٣
- محمد فريد وجدي : نقد كتاب الشعر الجاهلي ، طبعة أولى ، دائرة معارف القرن العشرين ، القاهرة ١٩٢٦.
- محمود أمين العالم : طه حسين مفكراً ، الهلال ، فبراير ١٩٦٦ .
- مرجليوث د.س : أصول الشعر العربي ، ترجمة وتقديم يحيى الجبوري ، بيروت ١٩٨١ .
- محمود مهدي الاستانبولي (معدا) : طه حسين في ميزان الأدباء والعلماء ، طبعة أولى ، بيروت ١٩٨٣ .
- مصطفى صادق الرافعي : تحت راية القرآن ، الطبعة السابعة ، بيروت ١٩٧٤ .
- نازك سابا يارد : الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة ، بيروت ١٩٧٩ .

- نجاح عمر : طه حسين ؛ أيام ومعارك ، المكتبة العصرية ، صيدا (بدون تاريخ) .
- هشام شرابي : المثقفون العرب وحضارة الغرب ١٨٧٥ ـ ١٨١٤ ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨١ .
- Safran, N., Egypt in Search of Political Community, Harvard, 1961.
- Smith, Charles, The Crisis of Orientation : The Shift of Egyptain intellectuals to Isla¢mic Subjects. in the 1930 s. M.E. Studies, 4, 1973.